



صحيح أن الثورة لم تصلح كل عيوبنا، إلا أنها أظهرت أجمل ما لدينا”， كتب هذا الشاعر الرومنسي في السنة الأولى من الثورة السورية، واتخذه البعض أيقونة، ولم يكن أحدهنا يدرى إلى أين نحن ذاهبون، ولم نتوقع حينها أن المنحنى البياني المتتصاعد لأخلاقنا سيتوقف عند ذروته يوما، وأنه سيترنح بعدها ويميل نحو الأسفل، ثم يهوي سريعا كانهيار مدننا المصنوعة من الملح.

أمضيت عاما كاملا قبل اندلاع الثورات في اعتزال الناس والتأمل، وشرعت في تدوين رواية وكتاب، فتضخما ليسودا مئات الصفحات، وما زالا في الطور الجنيني. رواية تحكي ضياع الشباب في عالم زائف، وكتاب يبحث حرفيا في "جنون العالم". وعندهما انقدحت شرارة الثورات طويت الصحف وكسرت الأقلام، وعقدت الأمل على هاتاف الشارع ورصاصة البنديقية.

أظهرت المؤسسة أجمل ما لدينا بالفعل، وكشفت زيف فقهاء السلطان وخواء "الدعاة الجدد" ونفاق مثقفي القومية.

كُسرت الأصنان وسقطت المرجعيات الكاذبة وأعيد ترتيب الأولويات، وتضخم فينا نحن الشباب جنون العظمة. ثم ماذا؟

بلغت الدماء الركب، واحتلّت السلاح، ولفظت السجون حثالة المجتمع إلى الشوارع، وفتحت حدود البلاد أمام شذاذ الآفاق، وأغتيل بعض قادة الجهاد المخلصين، وسقط مرتدو الفنادق بالبزات السوداء، وكشر "المجتمع الدولي" عن أننيابه، وتخاذل الأشقاء العرب، ورخصت الذم في سوق الحاجة، وغاب الراعي فنشبت الذئاب أننيابها في ظهور الرعية.

ظهرت داعش في المسافات الفاصلة بين طرفي الصراع، وأطاحت بكل الشعارات في تطبيق استعراضي لأكثر أفلام الربع وحشية. فانهار منحنى الأخلاق نحو الهاوية، وأظهرت الثورة أخيراً أسوأ ما لدينا!

إسقاط هيبة الدين:

كان ثمة أمل في الدعاة وطلبة العلم، وكانت ثمة جهود قاصرة للترقيع وسد الثغرات. لكن انهيار صورة فقهاء السلطان أخذ معه كل شيء، والمنظومة العلمية لدى سلك المشيخة - الذي لم يكن النظام ليسمح لغيره بالبقاء - لم تجد في جعبتها الكثير لتقديمه، وتلألأ لحي الخوارج بالدماء والجهل قلب الطاولة على العلم الشرعي كله، بل على الدين نفسه في أذهان جيل كان قد أضاع البوصلة أصلاً في ظل تربية العسكر العلماني وحكم الأقليات، قبل أن تجرفه ريح العولمة.

كان العلماء والدعاة على مر التاريخ نخبة الأمة وملاذها، فصاروا اليوم - ونحن في قلب المحنـة - رمزاً للخيانة. كان سمعتهم رمزاً للإنصراف عما في أيدي الناس، فأصبح اليوم - شاعوا أم أتوا - شعاراً للإقبال على الدنيا، وهناك من يغذي هذه الصورة النمطية كل يوم.

ودخل أنصاف المشايخ على الخط، وقد كان بعضهم في مطلع الثورات متربعاً متخوفاً على مصالحه، ثم وجد في الثورات طريقاً أسرع للشهرة والمناصب.

وببدأ سباق البحث عن لقب "شيخ الثورة" و"شرعـي" اللواء أو الجبهة، وصار معيار المشيخة في إعلان طالب العلم موقفه من الثورة "المجلة" أو من الجهاد، وبالتبـؤ من مشايخه الصامـتين، حتى إن كانوا في آخر أيام شيخوخـتهم وكان موقفـهم السياسي لن يغير من عزيمة الثوار ولا من ظـلم الطاغـية.

أما معيار المفاضلة في التأهل لمناصب القضاء الشرعي بالمحاكم الثورية فهو مدة المحكومية في سجون النظام ما قبل الثورة، وثمة أفضلية لمن تخرج من سجن صيدنـايا العـتـيد، فهو في عـرف "أخـوة المـنهـج" من أـعـظم "جامـعـات" العـلـمـ الشرـعيـ!

وبطبيعة الحال، دخل مثقفو الحادثة أيضاً على الخط، وأخرجوا ما في جعبـتهم من الحقد على "المؤسـسة الدينـية" كما فعل أسيادـهم إـبان الثـورة الفـرنـسـيةـ في "رـجال الدينـ". وبعد أن كان الطـعنـ في "مـؤـسـسـةـ" فـقهـاءـ السـلـطـانـ، اتسـعـ ليـشـمـلـ طـبـقةـ العـلـمـاءـ المتـسـلـسلـةـ منـذـ أـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ عـامـ، فـبـاتـ فيـ أـدـبـاـتـهـ حلـقـةـ مـتـصـلـةـ منـ "ـالـمـتـأـمـرـينـ" عـلـىـ الـوـحـيـ لـلـانـحـاطـاطـ بـالـأـمـةـ إـلـىـ ماـ صـارـتـ إـلـيـهـ.

وبعد أن كان تجديد الدين على رأس كل قرن هو تخليصـهـ منـ الشـوـائبـ الـمـسـتـورـدـةـ؛ بـاتـ فيـ قـرنـ الثـورـةـ نـقـضاـ لـلـتـرـاثـ كـلـهـ واستـيرـادـاـ جـاهـزاـ لـلـبـدـيـلـ منـ مـصـانـعـ ماـ بـعـدـ الـحـادـثـ.

وهـكـذاـ انـصـرـفـتـ الأـبـصـارـ عـنـ الـيـهـودـ وـالـمـاسـونـ وـالـاسـتـعـمـارـ وـالـرـأسـمـالـيـةـ وـالـشـيـوعـيـةـ وـالـقـومـيـةـ، وـصـارـتـ المـؤـامـرـةـ فيـ قـلـبـ تـرـاثـنـاـ، وـفـيـ مـاـ تـرـكـهـ الـكـبـارـ منـ ذـخـائـرـ التـفـسـيرـ وـالـفـقـهـ وـعـلـمـ الـحـدـيـثـ وـالـلـغـةـ.

لم يـعـدـ العـدـوـ مـوـضـوـعاـ بـلـ أـصـبـحـ فـكـرـةـ، ثـمـ أـصـبـحـ ذـاتـاـ تـجـلـدـ وـتـدـاسـ بـتـلـذـ "ـمـازـوـشـيـ"ـ مـرـيـضـ، وـأـصـبـحـ الشـابـ الـمـنـفـتـحـ مـفـتوـحاـ خـاـوـيـاـ كـأـعـجـازـ نـخـلـ مـنـقـعـرـ، وـغـاـيـةـ نـشـوـتـهـ فـيـ التـشـفـيـ مـنـ ذـاتـهـ الـتـيـ أـعـيـاـهـاـ الفـشـلـ.

بلغ هـوـانـ الشـابـ عـلـىـ نـفـسـهـ أـلـاـ يـرـىـ لـنـفـسـهـ قـيـمةـ فـيـ عـيـنـ الـعـالـمـ، وـالـعـالـمـ عـنـهـ هـوـ الغـرـبـ وـلـأـحـدـ سـوـاـهـ.

حتـىـ لمـ تـعـدـ هـنـاكـ مـؤـامـرـةـ تـحـاكـ وـلـأـعـدـ يـكـرـثـ فـيـ مـنـظـورـ مـدـرـسـةـ الـانـفـتـاحـ. أـوـلـيـسـ "ـالـعـيـبـ كـلـهـ فـيـنـاـ"ـ؟ـ فـمـنـذـ الـذـيـ يـهـمـ لـأـمـرـنـاـ ليـتـأـمـرـ عـلـيـنـاـ؟ـ

أصبح معيار الحق والباطل في مدرسة "أصول الفقه الفيسبوكية" هو موقع إقامة العالم أو طالب العلم، فإن كان يقيم تحت وابل الرصاص فكل ما يقوله "حق يُسمع" ولو كان مجرد دعى أمي، أما إن كان جالسا في غرفة مكيفة آمنة فكل ما يقوله "هراء"، حتى لو فتح الله له فأبدع من العلم ما يبز فتاوى أبي حنيفة والشافعي وابن تيمية.

أصبح قيام العالم وطالب العلم بحده الأدنى من واجبه الشرعي "تنظيراً"، وسواء كان تبليغه حكم الله للناس اجتهادا صائباً أم خطأ فالأمر في عُرف التأثرين سيان، فإما أن يوافق الحكم الشرعي هوامه فيُقبل؛ أو يُبُصق على لحية صاحبه مهما بلغ طولها وبياضها، وما أسهل الإتيان بالرد والنقض من سوق التجديد المنفتح.

أصبح العلم الشرعي بكل عظمته في ميزان الجيل ورقة صفراء تقطع من كتب تراث "الانحطاط"، وأصبح التراث المحفوظ منذ أكثر من ألف عام كلاً مباحتاً. فصار لكل طالب في كلية تقنية الحق في أن يختار ويرجح ويقابل ويعارض، وأن يقول "رأيي هو كذا" وهو لا يجيد كتابته بلغة سليمة. ولم يعد الأمر في أن يستفتني الفتى قلبه في الاختيار بين فتاوى أهل الذكر، بل في أن يُعمل هوامه في ما لم يقله أحد سواه، وأن يضرب بالعلم حائطا اسمه "لا يحق لمن لا يجاهد أن يفتى"، وهو قد جمع إلى قعوده عن jihad جهلاً مركباً.

يقول الشيخ سلمان العودة في مذكراته، إن أحد زملاء الصبا من طلبة العلم جادل شيخه الدكتور محمد عبد الوهاب البحيري في حلقة علم قائلاً "عندك أن الأمر كذا"، فقال له الشيخ "يا ابني إنت ما لكش عند!".

يقولون هذا عندنا غير جائز، ومن أنت حتى يكون لكم عند؟

أما الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو فصرّح مؤخراً بأن موقع التواصل الاجتماعي "تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناول كأس من النبيذ، دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع، وكان يتم إسكاتهم فوراً، أما الآن فلهم الحق بالكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل؛ إنه غزو للبلاء". ولعل إيكو، الذي يعد ثاني مشاهير العالم تأثيراً في تويتر، والذي كتب سابقاً رواية "بندول فوكو" وسخر فيها من كل من يتهم الحركات السرية بالمؤامرة، لعله يعلم أن موضع التواصل كلها في يد اليهود!

وسواء علم إيكو أم لم يعلم، فما قاله عن الحمقى في بارات الغرب لا يختلف كثيراً عن الحمقى في مجالسنا، فالذين كان الشيخ يسكتهم فوراً في مجالس العلم - عندما كان الشيخ العودة صبياً - أصبحت لديهم الآن في هوافتهم الذكية منابر، وخلفهم قطيع يصفق ويرفع شعارات الإسقاط لكل من لا يروق لهم.

ظن الجيل أن التغريد سلاحٌ يغير العالم، وأنهم أسقطوا به طاغيتين في تونس ومصر بثلاثة أسباب، وأنهم سُيُسقطون به أيضاً "تراث الانحطاط" في غمضة عين. ومع أن خيوط المؤامرة تكشفت في الثورات المضادة فما زال الاعتراف بالخدعية صعباً، وما دام التغريد هو "السلاح" الوحيد الذي كان ولا يزال متاحاً فسيبقى هو الملاذ الوحيد، وطالما ظل المشايخ هم الطرف الأضعف فلتتجه إليهم إذن فوهات الأسلحة الزائفة.

اتسع الخرق على الرافع، وسقطت هيبة الحق في بئر العدمية، وحُملت مسؤولية الفشل الجماعي على أولئك "الدراوיש"، وقدم المنطق قربانا على مذبح الفوضى.

أصبحت الفضيلة رذيلة، بل أصبح الهروب أم الفضائل، وبات الغريق في قوارب اللجوء إلى بلاد الفرنجة "سيد الشهداء"، وأقطاب المؤامرة الحاكمون باسم الديمقراطية في "الفردوس" الأوروبي هم "خلفاء الله في أرضه".

أليس طبيعياً إذن أن تسأل إحداهم صديقاتها: ألم تخلعن الحجاب بعد؟ وأن يعلن أحدهم بين أصحابه أنه وجد ضالته في "الإلهاد"، وأن يُلام "المشايخ" مجدداً: لماذا لا تنقدون هؤلاء؟ وأن يصبح الانشغال بالكشف عن أصابع اليهود في كل ثورات العصر الحديث مؤسراً على "حرف" الباحث الرصين.

أين هو الحل؟

في كل مرة تقريباً أصف فيها هذه الأمراض المزمنة يتكرر التعليق الاستنكاري على الفور: "حسناً لقد فهمنا، أين هو الحل؟" ولا يمكن فهم هذا السياق الاحتاجي إلا من وجهة نظر "أصول الفقه الفيسبوكية"، والتي تنص على أن كل من لا يملك الحل لا يحق له طرح المشكلة، وعليه أن يجلس بجانب الفاشلين ويلتزم الصمت.

حسناً، قل لي بالله عليك، ما الذي يمنعك من الانسلاخ عن تلك الجماهير والتوقف لحظة للتأمل، ومن أن تغلق التلفاز والفيسبوك وتويتر وتعزل المقاهي وجلسات الجدل ليلة واحدة فقط، ثم تفك بعقلك المجرد عن الهوى؟ وأن تستحضر الاقتراح القرآني للمشركين في إتاحة الفرصة لعقولهم بالنظر مرة واحدة بعيداً عن تأثير المحيط: {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثني وفرادي ثم تتفكروا ما بصادبكم من جنة}.

ولتسأل نفسك حينئذ: هل هناك مانع عقلي وفيزيائي وتاريخي من التصديق بحكمة العدو لكل هذه اللعبة؟

ألا يمكننا استعادة رشدنا الذاتي ما دام الوحي الإلهي مطبوعاً في مصاحف ومكتوباً بلغتنا؟ ألا نستطيع التفكير مجدداً في الواقع دون السقوط المزمن في المغالطات المنطقية؟ هل نحن مضطرون للاستماع إلى الجدل المشحون بكل الأمراض النفسية على موقع التواصل؟

حتى إن كان المحيط عاجزاً ومُحبطاً، فالحساب في الآخرة سيكون فردياً، وسيركز على نوايانا وأفعالنا وليس على النتائج الخارجية عن إرادتنا. فهل أخلصنا النية؟ وهل قام كل منا بدوره الفردي البسيط؛ حتى وهو يعلم أن الجماهير تتجه نحو الهاوية؟ وهل حاولنا إصلاح أنفسنا وتذكير الدائرة الضيقة التي حولنا بواجبها الفردي لإبراء الذمة؟ حتى ونحن نسقط معها في الهاوية؟

وإن لم نفعل، فهل اعتزلنا الجماهير المندفعة نحو الهاوية على الأقل؟ وهل حفظنا ألسنتنا وأقلامنا عن مشاركتهم في السقوط ولو بالكلام؟

هناك أبطال مخلصون "يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، لا يضرهم خذلان من خذلهم"، ومعهم صالحون مرابطون لا يتربكون ببيوتهم وأرضهم للمحتل الإيراني/الإسرائيلي، وبينهم دعاة صادقون يحتملون إلى الشرع ولو خالف هوى الجماهير الفاقدة للوعي.

النصر يكون للأمة كلها، فلا يتحقق ما لم تستحق أغليتها تلك الجائزة. فإن لم تجد أمتك أهلاً لذلك فعليك بخاصة نفسك، وليس ذلك بالانسحاب والقنوط، بل بإصلاح نفسك التي تُحاسب عليها، وإصلاح ما أمكن حتى لو تيقنت بأن جهودك لن يغير في الأمة شيئاً. فمن كانت في يده فسيلة وقامت عليه القيامة فليغيرها، حتى لو علم أنها لن تثمر في هذه الدنيا، فإنها ستثمر حتماً في صحيفتها، وقد يُحاسب إن لم يفعل.

من لم يستطع أن يبني أمته بهذه الثورات فليحرض على ألا يجعلها معلولاً للهدم، ومن لم تُظهر هذه الثورات أجمل ما لديه، فليعمل على ألا تمسخه إلى كائن غريزي بدائي متواحش، وذلك أضعف الإيمان.

أعطي حلاً عملياً!

تغبير النفس هو حل عملٍ وليس نظريًّا بالطبع، ولكن إن كنت ترى في نفسك قدرة أكبر على التغيير فاقرأً أوًّا كتب منير العكش عن الأساطير التوراتية التي أسسست وما زالت تحرك القوة العظمى في العالم (الولايات المتحدة)، ثم كتاب "من أجل صهيون" لفؤاد شعبان.

وهما أكاديميان علمانيان عملَا في أمريكا نفسها، وليسَا من أمثالِي "المهووسين" بنظرية المؤامرة وعودة المهدى في آخر الزمان!

وعندما تكتشف أنَّ الغرب يتحرك بداعِيَّةً أيديولوجية تسعى لاستئصالنا بنبوءات توراتية حتمية، وأنَّ الصراعات التقليدية التي لا يرى الإعلام سواها على الساحة الجيوسياسية هي إجراءات مرحلية؛ أعدَ التفكير فيما نفعله وفيما يراد منا وما ننتظره من يملك القرار السياسي والقوة العسكرية ووسائل التأثير.

أعترف لك بأنَّ بعض زملائي الباحثين في هذا المجال اعتزلوا يائسينٍ بمحيطهم الذي وصفته لك أعلاه واكتفوا بتأليف كتاب يطرحونه كلَّ عام للأجيال القادمة.

وسأكشف لك عن سر المفكر الراحل مالك بن نبي الذي احتفى به جيلنا الحداثي المُنفتح بصفته منظراً للفاعلية للاستعمار وجُلُّ الذات، حيث نشر أوصياء تراثه مؤخراً كتابه "المُسألة اليهودية" الذي أوصى عند تأليفه عام 1952 م بأن ينشر بعد موته، وكأنه أراد أن يقول لجييلنا إنَّ اللعبة أكبر مما نتوقع وإنَّ الحل يكمن في إصلاح أنفسنا أولاً، ثم اكتشاف هول المؤامرة، غير أننا لم نصلح أنفسنا بعد ولا نريد أن نصدق ما وصل إليه العدو من خبث.

أبو حامد الغزالى وعبد القادر الجيلاني اشتغلَا على تأسيس جيلٍ جديدٍ يعيد إحياء الأمة المنهارة، ثم جاء صلاح الدين الأيوبي بعد نحو قرن ليقطف ثمار تلك التربية ويحرر القدس.

حاولتُ في بعض الأحيان أنَّ أوصِل الرسالة إلى صناع القرار بيننا، ولعلك تعرف النتيجة. يمكنك أن تحاول أيضاً، وأن تعمل على تأسيس الجيل المرتقب حسب استطاعتك.

أما عن الحل المرحلي، فلا أعلم إنَّ كانت قدراتنا البحوثية القاصرة قادرة على إيجاد خيارٍ أفضل من الاستمرار على ما هو عليه الحال في جبهات القتال ضد إيران وإسرائيل، فنحن لا نملك مراكز بحثية ولا أنشطة استخباراتية، وجُهُدنا يقتصر حتى الآن على "التنظير" من داخل الغرف المكيفة الآمنة، كما هو حال كاتب هذا المقال.

وإن لم تستطع إيصال الرسالة إلى صناع القرار، ولا المُساهمة في تأسيس جيل النصر، ولا إعداد تقرير استراتيжи - استخباراتي يستشرف المستقبل، ويكشف كواليس الغرب وطهران، ويحدد ما يجب فعله لكتائب الثوار في سوريا والعراق ولبيها وغزة، وللمنتظرين على أنقاض ميدان رابعة؛ فأرجو على الأقل ألا تترك مكانك للعدو وتهاجر إلى أوروبا، وذلك أضعف الإيمان.

والله أعلم.

المصادر: